

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤ - سُورَةُ الدَّخَانِ

قال المهابي: سميت به لدلالة آيته على أنه جزاء غشيان أدخنة النفوس الخبيثة ، بصائر قلوب أهلها وأرواحهم. ولذلك رأوا الدلائل شبهات الشياطين. وجعلوا المميز بينهما مجنوناً. وإن القرآن كاشف عنه ككشف الدخان المحسوس عنهم ، وهي مكية . وآيها خمسون وتسع. روى^(١) الترمذي مرفوعاً : من قرأ (حمّ الدخان) في ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك . ثم قال : غريب . وعمرو بن أبي خثعم راويه ، يضعف . قال البخاري : منكر الحديث . أفاده ابن كثير .

(١) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٨ - باب ما جاء في فضل (حمّ الدخان) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حمّ)

[٢] (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)

« حمّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ » يعنى ليلة القدر التي قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم . وكانت في رمضان . كما قال سبحانه (١) (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) قال ابن كثير : ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان ، فقد أبعد النجعة . فإن نص القرآن أنها في رمضان . وما روى من الآثار في فضلها ، فثله لا تعارض به النصوص . هذا على فرض صحتها . وإلا فهي ما بين مرسل وضعيف . والبركة اليمن . ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأيمنها على العالمين ، بتزليل ما فيه الحكمة والهدى ، والنجاة من الضلال والردى . قال القاشاني : ووصفها بالمباركة ، لظهور الرحمة والبركة ، والهداية والعدالة في العالم بسببها . وازدياد رتبته ﷺ وكاله بها . كما سماها (ليلة القدر) لأن قدره وكاله إنما ظهر بها « إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ » أى من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل ، واختار المدامّ وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله ، ولم يقت روحه بقوت معارفه ، وذلك لتقوم حجة الله على عباده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

« فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » أى يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة ، على

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

وجه متين محمود عند الكمل تقنات به أرواحهم ، وترحم به نفوسهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٦] (رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا » نصب على الاختصاص . أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلًا من عندنا على مقتضى حكمتنا . وهو بيان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ » أى مرسلين إلى الناس رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، رحمة منه تعالى بهم ، لميسس الحاجة إليه . كما قال تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وجوز كون (رحمة) غلة للإيزال . أى رحمة تامة كاملة على العالمين بإيزاله ، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية ، وصلاح معاشهم ومعادهم ، وظهور الخير والسكال والبركة والرشاد فيهم بسببه . والوجه هو الأول . وهو كونه غاية للإرسال . لإفصاح تلك الآية عنه « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ » أى لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها « الْعَلِيمُ » أى بمقادير قابلياتها ، فلا يبعد عليه الإرسال والإيزال . قاله المهامى . وقال القاشانى : أى : السميع لأقوالهم المختلفة فى الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم ، (العليم) أى بعقائدهم الباطلة وآرائهم الفاسدة وأمورهم المختلفة ومعاشهم غير المنتظمة . فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادى إلى الحق فى أمر الدين . الناظم لمصالحهم فى أمر الدنيا ، المرشد إلى الصواب فيهما ، بتوضيح الصراط المستقيم ، وتحقيق التوحيد بالبرهان ، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

[٨] (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[٩] (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

« رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ » قال أبو مسلم : أى إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا . كقولهم (فلان متجد متهم) أى يريد نجدا وتهمة . اه . وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به ، من أنه رب الجميع وخالقه « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » أى بل ليسوا بموقنين في إقرارهم ربوبيته . لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان . وإنما هو قول ممزوج بلب ، لغشيان أذخنة أهوية نفوسهم ، بصائر قلوبهم وأرواحهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَأَرْقَبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ)

[١١] (يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٢] (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

« فَأَرْقَبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » أى انتظر لمجازاتهم ذلك اليوم الهائل . ولا يستعمل (الارتقاب) إلا في أمر مكروه . وللسلف في معنى الدخان ثلاثة أوجه : الأول - قال بعضهم : كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسنى يوسف . فأخذوا بالمجاعة . قالوا : وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ في أبصارهم من شدة الجوع ،

من الظلمة كهيمئة الدخان . روى ابن جرير^(١) عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن : إن قاصا عند أبواب كنفدة يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، وتأخذ المؤمنين منه كهيمئة الزكأم . فقام عبد الله وجلس وهو غضبان ، فقال : يا أيها الناس ! اتقوا الله . فمن علم شيئا فليقل بما يعلم . ومن لا يعلم فليقل (الله أعلم) . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم (الله أعلم) وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم (لا أعلم) فإن الله عز وجل يقول^(٢) لنبية ﷺ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدارا قال : اللهم سبعا كسيع يوسف . فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف . ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخانا ، من الجوع . فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال : يا محمد ! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم . قال الله عز وجل^(٣) (فَأَرْتَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) إلى قوله^(٤) (إِنَّكُمْ عَمَّا يُدْوَونَ) قال : فكشف عنهم^(٥) (يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) فالبطشة يوم بدر . وقد مضت آية الروم وآية الدخان . والبطشة والزام .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(٦) ورواه الإمام أحمد^(٧) في مسنده

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٦] . (٣) [٤٤ / الدخان / ١٠] .

(٤) [٤٤ / الدخان / ١٥] . (٥) [٤٤ / الدخان / ١٦] .

(٦) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٤ - سورة الدخان ، ٢ - باب

يَفْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، حديث رقم ٥٧٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ (طبعتنا) .

(٧) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٣٦١٣ (طبعة المعارف) .

وهو عند الترمذى^(١) والنسائى فى تفسيرهما، وعند ابن جرير^(٢) وابن أبى حاتم من طرق ممتدة وقد وافق ابن مسعود رضى الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كجاهد وأبى العالية وإبراهيم النخعى والضحاك وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير. قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والظاهر أن مجيء أبى سفيان كان قبل الهجرة. لقول ابن مسعود (ثم عادوا) ولم ينقل أن أبى سفيان قدم المدينة قبل بدر. وعلى هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضرا ذلك. فلذلك قال^(٣) :

* وَأَبْيَضَ يَسْتَسْقَى الْغَنَامُ بِوَجْهِهِ * البيت .

لكن روى ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة . فإن لم يحمل على التعمد ، وإلا فهو مشكل جدا . والله المستعان . انتهى .

وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان على هذا معنيين : أحدهما - أن فى سنة القحط يعظم ييس الأرض بسبب انقطاع المطر ، ويرتفع الغبار الكثير ، وبظلم الهواء . وذلك يشبه الدخان . ولهذا يقال لسنة الجاعة (الغبراء) ثانیهما - أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان . فيقولون (كان بيننا أمر ارتفع له دخان) . والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوقه أو ضعفه ، أظلم عيناه ، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان . انتهى .

وقال الشهاب : الظاهر أن هذه التسمية استمارة . لأن الدخان مما يتأذى به . فأطلق على كل مؤذٍ يشبهه ، أو على ما يلزمه ، ولذا قيل :

ترید مہذباً لا عیبَ فیہِ وهل عودٌ يفوحُ بلادُ دُخانِ

(١) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤٤ - سورة الدخان ، ١ - باب حدثنا محمود بن غيلان ،

(٢) انظر الصفحة رقم ١١١ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) وعجز البيت : * تَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ * .

وهذا البيت من قصيدة أبى طالب ، عمّ مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ ، ومطلعها :

خليلي ما أذنى لأولِ عادلٍ بصغواءٍ فى حقِّ ولا عند باطلٍ

الوجه الثاني في الآية - أنه دخان يظهر في العالم . وهو إحدى علامات القيامة . ولم يأت بعد ، وهو آت وهو قول حذيفة . وروى عن عليّ وابن عباس وجمع من التابعين . قال الرازي : واحتج القائلون بهذا القول بوجوه : الأول - أن قوله (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ) يقتضي وجود دخان تأتي به السماء . وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع ، فذلك ليس بدخان أتت به السماء . فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه ، عدولا عن الظاهر ، لا لدليل منفصل ، وإنه لا يجوز . الثاني - أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا . والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم . ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانا مبينا . والثالث - أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس . وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التي ذكرتموها لا تغشى الناس إلا على سبيل المجاز . وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل . الرابع - ماروى عن النبي ﷺ من عدّه الدخان من الآيات المنتظرة .

أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز . وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن جملة على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ماذكروه مشكلاً جداً . فإن قالوا : الدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) وهذا ، إذا إذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة ، استقام . فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله وبالرحم ، ووعده أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ، أن يؤمنوا به . فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم . أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة ، لم يصح ذلك . لأن عند ظهور علامات القيامة ، لا يمكنهم أن يقولوا (رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) ولم يصح أيضا أن يقال لهم (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) والجواب : لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى

ظهور سائر علامات القيامة ، في أنه لا يوجب انقطاع التكليف ، فتحدث هذه الحالة . ثم إن الناس يخافون جدا فيتضرعون . فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق . وإذا كان هذا محتملا ، فقد سقط ماقالوه ، والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثاني، ذهابا إلى ماصح عن ابن عباس، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرها ، التي أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة ، على أن الدخان من الآيات المنتظرة . مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى (فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) أي بين واضح يراه كل أحد . وعلى مافسر به ابن مسعود رضی الله عنه ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى (يَغْشَى النَّاسَ) أي يتغشاهم ويغمهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) . وقوله تعالى (هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي يقال لهم ذلك ، تقريرا وتوبيخا . كقوله عز وجل^(١) (يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ) أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقوله سبحانه وتعالى (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) أي يقول الكافرون إذا عابوا عذاب الله وعقابه ، سائلين رفعه وكشفه عنهم . كقوله جلت عظمته^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وكذا قوله جل وعلا^(٣) (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ نَحِبْ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) وهكذا قال جل جلاله .

(١) [٥٢ / الطور / ١٣ و ١٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (أَنِّي لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (مِمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ)

أَنِّي لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ « أي كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والنفاراة . ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه . بل كذبوه وقالوا معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته (١) (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْأَنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ) الآية . وكقوله عز وجل (٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فَوْتَ وَأَخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) إلى آخر السورة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

« إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » يحتمل معنيين : أحدهما - أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى (٣) (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وكقوله جلت عظمته (٤) (وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَآ نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والثاني - أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى (٥) (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) « ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم .

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٣] .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٥١] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٧٥] .

(٤) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٥) [١٠ / يونس / ٩٨] .

بل كان قد انعقد سببه عليهم . ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقبلوا عن كفرهم ثم عادوا إليه . قال الله تعالى ، إخبارا عن شعيب عليه السلام ؛ أنه قال لقومه حين قالوا (١) (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنَ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعْمُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كُرَاهِينَ * قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّمْنَا اللَّهُ مِنْهَا) وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم . وقال قتادة : (إِنَّكُمْ عَمَّادُونَ) إلى عذاب الله . وقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ)

« يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » فسّر ذلك ابن مسعود رضى الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضى الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم . وروى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب رضى الله عنه وجماعة عنه ، وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير (٢) : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال ابن مسعود رضى الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة في أصح الروايتين عنه . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

فصل :

وممن رجح الوجه الأول ، وهو أن المراد بالدخان يوم المجاعة والشدة مجازا ، بذكر المسبب وإرادة السبب . أو بالاستعارة ، العلامة أبو السعود حيث قال : والأول هو الذى يستدعيه

(١) [٧ / الأعراف] [٨٨ و ٨٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

مساق الفظم الكريم قطعاً . فإن قوله تعالى (أَنْتُمْ أَلَّذِينَ كَفَرْتُمْ) الخ ، ردّ لكلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان ، المنبئ عن التذکر والاتماظ بما اعترأهم من الداهية . أى كيف يتذكرون ؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى والحال أنهم شاهدوا من دواعى التذکر ، وموجبات الاتماظ ماهو أعظم منه فى إيجابها . حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبين لهم مناهج الحق ، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، تخرلها صمّ الجبال (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) عن ذلك الرسول وهو هو ، ربنا يشاهدون منه ما شاهدوه من العظام الموجبة للإقبال عليه . ولم يقتنعوا بالتولى (وَقَالُوا) فى حقه (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى قالوا تارة : يملمه غلام أعجمى لبعض ثقيف . وأخرى مجنون . أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا . فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟ وما مثلهم إلا كمثل السكب إذا جاع ضعف ، وإذا شبع طغى . وقوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) جواب من جهته تعالى عن قولهم (رَبَّنَا كُشِفَ عَنَّا الْعَذَابُ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) بطريق الالتفات ، لمزيد التوبيخ والتهديد . وما بينهما اعتراض . أى إنا نكشف العذاب المهود عنكم كسفا قليلا ، أو زمانا قليلا . إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والإصرار على الكفر . وتنسون هذه الحالة . وفائدة التقييد بقوله (قَلِيلًا) الدلالة على زيادة خبثهم . لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف ، كانوا بدمه أسرع إلى العود . وصيغة الفاعل فى الفعلين ، للدلالة على تحققهما لا محالة . ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى ، بدعاء النبي ﷺ . فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتو والعتاد . انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة .

فصل :

وأما الوجه الثالث فى الآية ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى . حدثنا جعفر بن مسافر .

حدثنا يحيى بن حسان . حدثنا ابن مهيعة . حدثنا عبد الرحمن الأعرج فى قوله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ) قال : كان يوم فتح مكة . قال ابن كثير : وهذا القول غريب جداً بل منكر . انتهى .

أى لأنه لم يرو مرفوعاً ولا موقوفاً على ابن عباس ، ترجمان القرآن . أو غيره من الصحب . إلا أن عدم كونه مأثوراً لا ينافى احتمال لفظ الآية له ، وصدقها عليه . لا سيما ، ويؤيده قوله تعالى فى آخر السورة (فَأَرْقَبُ إِنَّهُمُ مُرْتَدِّبُونَ) مما هو وعد بظهوره عليهم . وكان ذلك يوم الفتح . وحينئذ ، فعنى قوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ) أى ما ينزل بهم يومئذ ، برفع القتل والأسر عنهم . ومعنى (عَابِدُونَ) أى إلى لقاء الله ومجازاته .

فصل :

يظهر مما نقلناه عن السلف فى هذه الآية من الأقوال الثلاثة ، أن هذه الآية من الآى اللاتى أخذت من الصحب ، عليهم الرضوان ، اهتماماً فى معناها ، وعناية فى البحث عن المراد منها . حتى كان ابن مسعود مصرّاً على وجهه ، وعلى ابن عباس وحذيفة على وجه آخر . على ما أسند عنهم من طرق . ولعمرك الحق ! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية . وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار . وسبب الاختلاف هو إيجاز الأسلوب الكريم ، وإيثاره من الألفاظ أرقها ، وأوجزها . مما يصدق بللاغته حقيقة تارة ومجازاً أخرى . هذا أولاً . وثانياً ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات ، كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعو إلى اتحاد المراد منهما . لما تقرر من شرح السنة للكتاب . وهذا ما درج عليه المحدثون قاطبة . فترى أحدهم إذا رأى فى خبر ما يشير إلى آية ، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعمده . وأما من فتح للتدبر باباً ومهد للنظر مجالاً ، ورأى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقاتها ، وأنها أعم وأشمل ؛ أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه ،

فذلك وسع للسالك المسالك ، وفتح للمريد المدارك . ورقاه من حظيرة العقل إلى فضاء العقل .
ولكل وجهة .

إذا علمت ذلك، رأيت أن من فسر هذه الآية بالحجاجة التي حصلت لقريش، أمكنه تطبيق الآية عليها مجازاً في بعض مغرداتها، وحقيقة في بقيتها وفي وقوع مصداقها، في رأيه. ومن فسرهما بالدخان المنتظر، المروي من أشراف الساعة، وقف مع المروي ورأى أنه تفسيرها . لأن الأصل التوافق والحمل على المعهود . لأنه الأقرب خطورا والأسبق حضورا . ومن فسرهما بالظهور عليهم يوم الفتح ، رأى أنها من بايع الحجاز وبديع الكناية في ذلك . وأن الوعد بالارتقاب . كثر أشباهه ونظائره في غير ما آية ، مراداً به الفتح . كآية^(١) (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيهَتْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِيَّاهُمْ مُنْتَظِرُونَ) فهذا وأمثاله يبين ماخذ الأئمة ومداركهم في التأويل . وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأي عن التشيع لمدرك دون آخر . ما لم يكن نعمة ما يرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازي المتقدم ، واحتجاجه للوجه الثاني بما أطال به ، أن لا منتدح ، بعد، عنه . مع أن للذهاب إلى غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة الحجاز . بل وقوته هنا . لأن المقام مقام إنذار وإبعاد . والدوق أكبر حاكم وإليه مراد البلاغة . ولا يلزم التأول نكرانه للدخان المنتظر . كما قد يتوهم . بل يعترف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وينقلب هذا النظام إلى نشأة ثانية . وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظي اتحاد التلوّ والمروي . وبالجملة ، فاللفظ الكريم يتناول المعاني الثلاثة . وسببه تحقق مصداق الجميع . وأما تبيين واحد منها للمراد ، فصعب جداً فيما أراه . لاسيما ولم يتفق الصحب على رأى فيها . هذا ما نقوله الآن . والله العليم . وقوله تعالى :

(١) [٣٢ / السجدة / ٢٨ - ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ » أى ابتلينا ، قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا . فاختاروا الكفر على الإيمان « وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » أى على الله والمؤمنين . أو فى نفسه . فعلى الأول كريم بمعنى مكرم أى معظم . وعلى الثانى ، من الكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة ، حسبنا ونسبنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

« أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ » أى أرسلوا معى بنى إسرائيل ، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى . وأطلقوهم من أسركم وحبسكم . فإنهم قوم أحرار ، أبوا ، للضيم ، هذه الديار « إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ » أى على وحيه ورسالته ، التى حملنيها إليكم ، لأنذركم بأسه إن عصيتم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ، إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

« وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ » أى بإنكار ربوبيته ، ودعوى الربوبية لأنفسكم ، وتكذيب رسوله وغضب عباده « إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » أى حجة واضحة على ربوبية الله ، ونفى ربوبيتكم . وعلى رسالتي . وعلى أن بنى إسرائيل عباده الخاصة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ)

« وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ » أى اعتصمت به من رجكم . يعنى القتل ، فعصمتنى ، فلا ينالنى منكم مكروه ، مع أنه لا يعصم من افتراء عليه . وقصد بهذه الجملة

إظهار مزيد شجاعته وثباته في موقف تضطرب فيه الأفئدة ، وتزلّ الأقدام ، خوفا ورعبا .
وما ذاك إلا لإيوائه إلى عصمة الله وتأيمده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُنِي)

« وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُنِي » أى فكونوا بمعزل عني . فلست بموالٍ منكم أحدا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَدَعَا رَبَّهُ - أَنْ هَآؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ)

« فَدَعَا رَبَّهُ - » أى لما تابوا عن إجابته « أَنْ هَآؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ » أى مشركون

مفسدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَاسْرِعْ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ)

« فَاسْرِعْ بِعِبَادِي لَيْلًا » أى فأجاب دعاءه ، وأوحى إليه بأن سر بقومك ليلا « إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ » أى إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم . إذا شخصتم عن بلدكم وأرضهم ليرجعوكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًا ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ)

[٢٥] (كَمْ تَرَ كُوفًا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ)

« وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًا » أى فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك ، فاتركه ساكنا على حاله
التي كان عليها حين دخلته ، ولا تضربه بمصاك ليدخله القبط فيغرقوا « إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ »
كم تَرَ كُوفًا » أى بعد هلاكهم بالغرق « مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ » أى بساتين وعيون يسقى
منها ويتنعم بالنظر فيها ، هذا في التفكه والتنزه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

« وَزُرُوعٍ » أى قاعة في مزارعهم للقوت « وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » أى محافل مزينة ومنازل مزخرفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

« وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ » أى متفهمين من نساء وأموال وحشم، ومالا يحصى

من المشتهيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ)

« كَذَلِكَ » أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج . فالكاف، أو الجار والمجرور صفة مصدر

مفهوم من الترك . أو هو خبر محذوف . أى الأمر كذلك . والمراد به التأكيد والتقرير

« وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ » يعنى من خلفهم بعد مهلكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)

« فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » قال الزمخشري : إذامات رجل خطير، قالت العرب

في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض . وبكته الريح وأظلمت له الشمس . قال جرير^(١) :

* تَبْكِي عَلَيْكَ نَجْمُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا *

(١) قطعة من ثلاثة أبيات رثى بها عمر بن عبد العزيز . وصدر البيت .

* فَالشمسُ كاسفةٌ ليستُ بطالعةٍ *

(الديوان ج ١ ص ٣٠٤)

وقالت الخارجية^(١) :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكٌ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه . وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه من بكاء مصلى المؤمن وآثاره في الأرض ، ومساعد عمله ومهابط رزقه في السماء : تمثيل . ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى^(١) (فَمَا بَسَّكَ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) فيه تهكم بهم وبخالهم ، المنافية لحال من يعظم فقدده . فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فذا بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلا كههم مسرورين . يعنى : فذا بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض « وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » أى مؤخرين بالعقوبة . بل عوجلوا بها ، زيادة سخط عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

« وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ » يعنى استعباد فرعون وقتله أبناءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (مِنْ فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ)

« مِنْ فِرْعَوْنَ » بدل من العذاب ، على حذف مضاف . أو جعله عذاباً ، مبالغة لإفراطه فى التعذيب . أو حال من (المهين) بمعنى واقعا من جهته « إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا » أى متكبرا على الناس « مِنَ الْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحد ، فى العتو والشر .

(١) البيت للمبلى بنت طريف الشيبانى . ترى أياها الوليد ، وكان يزيد بن مزيد قتله .

والقصيدة مطامها :

بِتَلِّ بِنَاتًا رَسْمُ قَبْرِ كَأَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَوْقَ الْجِبَالِ مُنِيفٍ

(الأغانى ج ١٢ ص ٩٣ ، طبعة الدار) . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

«وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» أى فضلناهم لأجل علمهم معهم، على عالمي زمانهم .
أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَأَيُّ تَيْبَتُهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَدًا مُّبِينًا)

«وَأَيُّ تَيْبَتُهُمْ» أى زيادة على اختيارهم وتفضيلهم «مِّنَ الْآيَاتِ» أى المعجزات
والكرامات «مَا فِيهِ بَلَدًا مُّبِينًا» أى نعمة ظاهرة، لأنهم حجة واضحة على أعدائهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ هَآؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ)

[٣٥] (إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُخْشَرِينَ)

«إِنَّ هَآؤُلَآءِ» أى مشركي قريش «لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ» أى
المتعقبة للحياة . كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه . وليس القصد إلى إثبات ثانية . قال الإسفوي
في (التمهيد) : الأول في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون . كما تقول : هذا
أول ما اكتسبته . فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب . كذا ذكره جماعة ، منهم
الواحدى في تفسيره ، والزجاج . ومن فروع المسألة ، ما لو قال : إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأتت
طالق ، تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره ، بالاتفاق . قال أبو علي : اتفقوا على أنه ليس من
شرط كونه أولاً ، أن يكون بعده آخر . وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره . انتهى .
وما ذكر أظهر مما للزمخشرى هنا « وَمَا نَحْنُ بِمُخْشَرِينَ » أى مبعوثين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى بعثنا بعد بلائنا فى قبورنا . قال ابن كثير : وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة . فإن العاد إنما هو يوم القيامة ، لافى دار الدنيا . بل بعد انتقضائها وذهابها و فراغها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا . ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا . ثم أنذرهم تعالى بأسه الذى لا يرد ، كما حلّ بأشباهم من المشركين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أُمَّ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« أُمَّ خَيْرٌ » أى فى القوة والمنعة « أَمْ قَوْمٌ تُبَّعُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ » أى أهلكناهم بجرمهم . وهو كفرهم وفسادهم . وهم ما هم . فما بال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم ؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ . أهلكهم الله عز وجل وفرقهم فى البلاد شذر مذر . كما تقدم فى سورة (سبأ) قال ابن كثير : وقد كانوا عربيا من قحطان . كما أن هؤلاء عرب من عدنان . وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً . كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس و (قيصر) لمن ملك الروم . و (فرعون) لمن ملك مصر كافرا . و (النجاشي) لمن ملك الحبشة . وغير ذلك من أعلام الأجناس ، ولكن اتفق أن بعض تبعاتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند . واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه . واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه . وهو الذى مصّر الحيرة . فانفق أنه مر بالمدينة النبوية ، وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فانعوه وقتلوه بالنهار وجعلوا يَقْرُونَهُ بالليل . فاستحيا منهم وكف عنهم . واستصحب معه حبرين من أحبار يهود ، كانا قد نصحاها وأخبراها أن لا يسبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبيّ يكون فى آخر الزمان . فرجع عنها وأخذها معه إلى بلاد اليمن . فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة . فنهاه عن ذلك أيضا ، وأخبراه بعظمة

هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبي المبعوث فى آخر الزمان . فمظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والخبر . ثم كرت راجعا إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى اليهود معه . وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهود معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه (السيرة) . وترجمه الحافظ ابن عساكر فى (تاريخه) ترجمة حافلة . وذكر أنه ملك دمشق . وساق ماروى فى النهى عن سبه ولعنه . قال ابن كثير : وكأنه ، والله أعلم ، كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دين السكيم على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق . قبل بعثة المسيح عليه السلام . وحج البيت فى زمن الجرميين وكساه الملاء ، والوصائل من الحرير والخبر . ونحر عنده ستة آلاف بدنة . وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة ، عن أبي بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وكعب الأحبار . وإليه المرجع فى ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا . وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق فى (السيرة) كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ، ترجمة تبع هذا ، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل . فإن تبعا هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه . ثم لما توفى عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام . فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره فى سورة سبأ . وتبع هذا هو تبع الأوسط . واسمه أسعد أبو كرب . ولم يكن فى حمير أطول مدة منه . وتوفى قبل مبعث النبي ﷺ بنحو من سبعمائة سنة وذكروا أنه لما ذكر له الخبران من يهود المدينة ، أن هذه البلدة مهاجر نبيّ فى آخر الزمان اسمه أحمد ، قال فى ذلك شعرا . واستودعه عند أهل المدينة . فكانوا يتوارثونه ويروونه خلقاً عن سلف . وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، الذى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى داره ، وهو :

شهدتُ على أحمدٍ أنه رسولٌ من الله باريَّ السمِّ
فلو مدَّ عمري إلى عمريه لكنتُ وزيراً له وابنَ عمِّ
وجاهدتُ بالسيفِ أعداءهُ وفرَّجتُ عن صدرهِ كلَّ غمِّ

ثم ساق ابن كثير آثارا في النهي عن سبه : وبالجملة فإن قصته المذكورة والمروي في شأنه ، وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح ، إلا أن ذلك مما يتحمل التوسع فيه ، لكونه نبأ محضاً مجردا عن حكم شرعي . نعم ، لا يشك أن قريشا كانت تعلم من نخامة نبئه المروي لها بالتواتر ، ما فيه أكبر موعظة لها . ولذا طوى نبأه ، إحالة على ما تعرفه من أمره ، وما تسمر به من شأنه . وما القصد إلا العظة والاعتبار ، لا قص ذلك خبرا من الأخبار ، وسمر من الأسرار ، كما هو السر في أمثال نبئه . وبالله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينِ)

[٣٩] (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينِ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »
أى الاستدلال على خالقهما ، لمبادته وطاعته « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى حكمة خلقها ، فيعرضون عنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤١] (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٢] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ » أى فصل الله بين الخلائق وقضائه عليهم ، ليجزيهم بما أسلفوا

من خير أو شرّ « مِمَّنْهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا » أى من إثابة أو تحمّل عقاب « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ » أى بأن وفقه للإيمان والعمل الصالح « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه من أعدائه « الرَّحِيمُ » أى بأوليائه وأهل طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ)

« إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ » أى التى هى أخبث شجرة معروفة فى البادية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (طَعَامُ الْأَثِيمِ)

« طَعَامُ الْأَثِيمِ » أى الفاجر الكثير الآثام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ)

[٤٦] (كَغَلَى الْحَمِيمِ)

« كَالْمُهْلِ » وهو دردىّ الزيت ، أى عكره فى قعره « يَغْلِي فِي الْبُطُونِ » أى يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها . وقوله « كَغَلَى الْحَمِيمِ » أى الماء الحارّ الذى انتهى غليانه . وقوله (فِي الْبُطُونِ) كقولهِ (١) (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطْلَعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) وهذه الآية كآية الصفات (٢) (أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْمَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا فَمَا لُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) .

(٢) [٣٧ / الصفات / ٦٢-٦٧] .

(١) [١٠٤ / الهمزة / ٧٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

« خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ » أى اذفوعوه بعنف « إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ » أى وسطها ومعظمها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ)

« ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » أى لتستوفى جميع أجزاء بدنه نصيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » أى يقال له ذلك ، على سبيل الهزؤ والتهمك ،

فيلم له ، مع العذاب الأول ، وهو الحسى ، العذاب العقلى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ)

« إِنَّ هَذَا » أى العذاب أو الأمر « مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ » أى تشكرون ،

مع ظهور دلائله . أو تمارون وتتلاحون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ » أى يأمن صاحبه من الخوف والفرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٣] (يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّيَلِينَ)

« فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ » أى مارق من الحرير وكثف
« مُتَّيَلِينَ » أى فى مجالسهم أو أماكنهم ، لحسن ترتيب الغرف ، وتصنيف منازلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

« كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أى قرناهم بما فيه قرة أعينهم واستئناس قلوبهم ،
لوصولهم بمحبوبهم ، وحصولهم على كمال مرادهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ)

« يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ » أى يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون
من الفواكه ، آمين من كل ضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ، وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[٥٧] (فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[٥٨] (فَأَنَّمَا يُسْرَتُهُ يُلسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٩] (فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ)

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ » قال ابن جرير^(١) : أى لا يذوق
هؤلاء المتقون فى الجنة ، الموت بعد الموتة الأولى ، التى ذاقوها فى الدنيا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وكان بعض أهل العربية يوجه (إلا) هنا بمعنى (سوى) أى سوى الموتة الأولى . انتهى .
 يعنى أن الاستثناء منقطع . أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا « وَوَقَّعَهُمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
 أَى سهلناه حيث أزلناه بلغتك ، وهو فذالكه للسورة « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتمظنون
 بعبره وعظاته وحججه ، فينبوا إلى طاعة ربهم ويدعونوا للحق « فَأَرْتَقِبْ » أى ما يحل بهم
 من زهوق باطلهم « إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ » أى منتظرون عند أنفسهم غلبتك . أو هو قولهم
 (نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) وهذا وعده له ﷺ بالنصرة والفتح عليهم ، وتسليمه
 ووعيد لهم . وقد أنجز الله وعده ، كما قال سبحانه (١) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْمَلِينَ أَنَا وَرُسُلِي)
 وقوله تعالى (٢) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
 الْأَشْهُدُ) .

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥١] .